

مقدمة

في منتصف شهر مارس عام ١٩٤٦ أصدرت دار نشر الثقافة ، كتابي الأول عن جورج برنارد شو ووزعته في مصر وسائر بلاد الشرق العربي ، ولم يكن لي دور بخلدى آنذاك أن كتابا عن جورج برنارد شو ، يلاقى مثل ما لاقاه هذا الكتاب من رواج ونجاح لاشك أنهما أثبتا في شغف القراء بهذا الرجل ، وسمو تقديرهم لمواهبه وعبقريته الفذة . الشيء الذي أجبرني على متابعة دراسته دراسة دقيقة خلال العامين الماضيين ، حتى أنني تلفت حولي ، أقلب النظر فيما أمامي من كتب ، فإذا بها جميعاً تتناول موضوعا واحداً ، وتحاول جاهدة أن تكشف القناع عن شخصية رجل واحد بلغ مراتب النضج الذهني ، فغدا حديثه ، وغدت أفكاره وآراؤه عصارة لتجاربه ، ومنازة يهتدى بهديها شعوب العالم أجمع . .

ولم أفق إلا على حقيقة واحدة هي أنني ضيعت عامين آخرين مع هذه الشخصية ، أحاول سبر غورها ، والوقوف على طلائعها ومعانيها . .
ولم تكن هذه الشخصية غير شخصية برنارد شو . .

وبرنارد شو موضوع قائم بذاته ، له أهمية كبرى في هذا العصر ، فلا عجب أن عدت إلى الكتابة عنه مرة ثانية ، أتم بحثا بدأت منذ عامين ، ومن يدري ؟ فقد يمتد الأجل بهذا الرجل بضعة سنين آخر يملؤ الدنيا خلافا لكتابته بأسلوبه الساخر الفريد ، فنعود نحن إلى الكتابة عنه مرة ثالثة ، إذا امتد بنا الأجل كذلك .

ودراسة برنارد شو تحتاج فيما تحتاج إليه الصبر طويلا ، والمرانة على مجابهة المصاعب والمشاكل . فهو رجل معقد إلى أبعد درجات التعقيد ، عسير فهمه .

ولست أذيع سرا ، إذا قلت إنه أقض مضجعي ليالي كثيرة ، وأجبرني على قدح زناد فكركي زهاء ستة أشهر طوال . حاولت أن أفسر فيها كتابه الجديد « قاموس السياسة » ، هذا السفر الجميل الذي يعد بحق أحسن ما كتب برنارد شو في عالم الدبلوماسية . لأنه دستور شامل لأسباب المدنية ، لأسباب التربية والتعليم ،

والاقتصاد ، ونشوء الدولة ، وارتقائهما من طور إلى طور حتى تصل آخر درجة في سلم السكال المنشود .

ويكفي أن صاحبه كتبه وهو في سن الاكتمال السياسى ، والنضج الذهنى ، ثم قال عنه ، وهو صاحب النظرة البعيدة ، بسخريته المعهودة : ومع كل فكثابى هذا مرشد الاطفال في السياسة ١١٩ . . .

زد على ذلك ما أثاره ويشيره برنارد شو من موضوعات ومشاكل تعتبر من أمهات المسائل التى تحظى بتمكيز أقطاب السياسة فى كل صقع ومصر ، وعلى الاخص فى هذه الفترة الدقيقة التى تواجهها الأمم والشعوب من قلق دائم ، واضطراب عصبي شديد . . .

أقول إن برنارد شو فى هذا الكتاب ، كما فى كتابه الآخر : جرائم السجن ، ينهال بسخريته المعهودة على أساليب الحكم الراهنة ، ويقوضها من أساسها ، كما ينهال بسوطه الملتهب على ظهور هؤلاء الذين سبوا للعالم متاعب ، ما كان يجب أن تكون لو أنهم تبصروا فيما أقدموا عليه من أعمال ، وعرفوا سوء المصير الذى صار اليه العالم المتمدين الحديث . . .

فمر فى هذه المرة يهدم كما اعتاد أن يهدم نظريات غيره ، منذ أرسل صيحاته الداوية فى فجر هذا القرن الذى نعيش فيه ، ثم يخرج على عادته ، فيقدم مواد البناء وخاماته ، ويحلل كل مادة تحليل الكيمياءى البارع المتمكن فى عمله . ليؤكد لأمثال هؤلاء الساسة الكبار ، أنهم إنما ركبوا شياطين أهوائهم ، وضربوا صفحاً بحقوق ذلك الفرد الذى يعيش فى مجتمعهم . والذى يفتقر عادة إلى معونتهم الدائمة ، وينزع بطبعه إلى التمتع بمطاييب الحياة ومغرياتها ، لو أنهم مهدوا له ذلك بتصرفهم الحكيم .

ولكن قد يكون هذا محض خرافة ، فما تنزهت أمة عن النقائص ، وما تبرأت من الجشع المطبق الذى يحثم على صدرها . إنها والحالة هذه إنما تبحث عن صالح الفرد أيضاً ، وتحاول جاهدة أن توسع من ممتلكاتها لتتيح له فرصة التمتع بمطاييب الحياة فى مستعمرة من مستعمراتها النائية ، فهى تفيده من نواح متعددة ، وتمهد له طريق العيش الهين الرغيد . . .

وهنا يبدأ الصراع من جديد... ويتحرك برنارد شو في مقعده تأثر النفس
ساخطا متبرما ، ولا يلبث أن تتحرك يده الفولاذية إلى سوطه يعبث به في الهواء
متوعدا مهددا ، ثم ينهال على هؤلاء الحكام وأفكارهم ، فيسقطهم من عليانهم ،
ويسفه أفكارهم الاستعمارية البغيضة التي لا تسعى إلا إلى خراب البيوت ، وتحبذ
السي والقرصنة والسرقة من ديار الغرباء ، لتتمتع هي وشرذمتهم من المواطنين
بمطايب الحياة اغتصابا .

إنها والحالة هذه إنما تهدم المبادئ العليا ، وتلقى بها إلى أعماق المحيط...
فيا لصيغة الأخلاق على يد هؤلاء الحكام المزيفين الذين تنقاد وراءهم الشعوب
كالخراف لا فرق بينها وبين قطعان الماشية ، وهي تنقاد إلى حتفها بظلفها...

يبحر برنارد شو في رسالته نجاحا منقطع النظير ، ولم يأتيه هذا النجاح جزافا ،
أو من باب المصادفات ، بل أتاه بعد أن تحمل في سبيله الآلام والتشرد والاضطهاد ،
واسكنه سار في طريقه لا ينظر وراءه ، بل تابع نظراته إلى الامام ..
إن الماضي ملئ بالأخطاء ، والحاضر رهن بأخطاء الماضي ، والمستقبل بيد الله
عالم مجهول لا يعرف مداه .

ولكن عبرة الماضي ، وقلق الحاضر ، يفتقران إلى حكمة سديدة لن تأنيهما إلا
في مستقبل الأيام .

إذن... ماذا يعوز شعوب العالم الآن غير الوقوف على تلك الحكمة البالغة التي
تنير أمامهم الطريق ، وتحذرهم من الوقوع في أخطاء الماضي ، وترفع عنهم قلق
الحاضر ؟ إنها المنارة التي يبحثون عنها في خضم الحياة ، تبدد لهم سواد الليل وترد
عنهم أبالسة الظلام ..

هي حكمة طال بحشم عنها فلم يجدوها...

قلبوا صفحات الكتب التي ملأت الارض منذ أن بدأت الثقافة تعمل عملها
في ذهن الإنسان .

طالعوا للفلسفة والحكمة الاولين ، ودرسوا نظرياتهم دراسة وافية ، فخرجوا من بينهم بشيء يذكر .

لهم يطالعون أحلاما منمقة بعيدة التحقيق . يعيشون في جوها العبق منتشين ساعة أو ساعات . في مدينة فاضلة ، لا يعرف الشر طريقه اليها ، فإيكادوا يلقون بأسفار الحياة جانباً ، حتى تهزأ بهم الحقيقة السافرة والواقع المرير ، ويعرفون أن الشر مزروع في كل مكان حتى في أمكنة الصالحين والمؤمنين .

كل هذا عمل له برناردشو كل حساب . بل لعله كان أبعد من ملايين الناس نظراً وأخصبهم فكراً ، وأقوام تحملاً للشدائد والخطوب ووعورة الطريق . قداس الاشواك يقدم دامية ، وتخطى الاسوار بمهارة فائقة ، حتى وصل إلى ذلك الشاطئ المجهول . ينظر منه إلى صفحة المرأة السحرية ، التي لا يعرف طريقها إنسان ، فتعكس له صور الحقيقة شفاقة عارية سافرة لا تفتر إلى دليل .

وأطال برناردشو النظر ، فرأى شرور العالم مجسمة مرتبة في هيئة دور وطباق فوقف على مواطن الشر ، وتأصل الضعف ، وتغلغل الفساد في المجتمع الانساني الحديث وأنغمض عينيه عسى أن تغير الصور أو تبدل بها غيرها ، ولكن المرأة كانت صادقة فيما أوحى به ، أو فيما كشفت له من أسرار . فمز رأسه متحسراً واعتزته نوبة شديدة ، من غضب دفين ، فهب واقفاً ، والدماغ تسيل من قدميه ، وتناول حجراً أصم ، والقي به بكل قوته إلى تلك المرأة اللعينة فتطاير رذاذ الماء إلى وجهه حتى غمره ، فأفاق تدريجياً على الحقيقة المرة . . ثم عاد .

عاد يقول لقومه : أيها الشعب الانجليزي الغر المفتون بنفسه . . . إنكم يا قوم تتخبطون خبط عشواء . وتهيمون في آفاق الضلال والبهتان ، وتغرقون تدريجياً في محيط من الشموات الجشعة الفانية ، فإين مبادتكم يا قوم ؟ أين مثلكم العليا ؟ أين خلقكم القويم ؟ وأين وأين . . . إنها جميعاً قد اندثرت ، وطمست معالمها منذ أن بدأت تسعون إلى إثارة الفتنة في النفوس ، وتولبون العناصر بعضها على بعض ، وتمثلون مسرحية الشيطان ، بل إنكم والحق يقال ، برعتم وفقتم الشيطان دساً وتفرقوا فاشعلتم النار في كل مكان ، وقوضتم صروح الاخلاق . فلم يعد لها في الوجود أثر يذكر .

أرايتم إلى أى منقلب تنقلبون وإلى أى طريق انتم مسوقون ؟ طريق الفساد لا أكثر ولا أقل . طريق خير لكم ألا تطرقوه باقدامكم بعد اليوم ، فهو طريق ممقوت مردول . مشوه المعالم ، بعيد كل البعد عن النزاهة والشرف - رأس مال الدولة الصالحة - بل إن النزاهة والشرف ليا بيان بكل إباء وشمم أن ينظرا إليه . . .

ولكن هل أفادت تعاليمى فيكم شيئا يا قوم : هل أثمرت ؟

ليست هذه هي الصيحة الأولى ، وإن تكون الأخيرة .

بل هذه صيحة دائمة ستقض مضاجعكم ، وتعكر عليكم صفو أحلامكم .

خذوها منى حكمة خالدة ، هي تلك الحكمة التي دأب الانسان في البحث عنها في كل الكتب فما أفادته كتب الاولين ، ولن تفيده كتب المتقدمين أو القادمين . ابتذوا الاستعمار ، فهو طريق للارذيلة والفساد .

وثمة شيء آخر جدير بالذكر والتسجيل ، هو تلك الظاهرة التي أجبرت فطاحل كتاب أوربا وعلى رأسهم السير ماكس بيربوم ، على تحليل شخصية هذا الرجل تحليلا دقيقا . فانتهمزوا فرصة بلوغه التسعين في عمره المديد ، وتناقشوا فيما بينهم وانفقوا على أهدائه باقة من الورد . . والورد عادة لا يخلو من الاشواك .

فقام فريق منهم بإبداء رأيه في صراحة ، فلم يعمد أحدهم إلى تضليل الناس به ، أو التماق إليه . بل أبدى كل رأيه في جرأة . حتى أن الاستاذ ا . س . نيبيل ، وهو من فطاحل رجال التربية القلائل الذين تعتد بهم الحكومة الانجليزية وتفخر بنظرياتهم قال له في صراحة نادرة : انك يا برنارد شو لا تفقه شيئا في النظريات التربوية . .

بل قال أكثر من ذلك ، وسيقف القارىء على كثير من هذه الآراء التي قدمها ، كما أسلفت ، أكبر الكتاب الانجليز إلى سيد كتاب القرن العشرين في عيد ميلاده التسعين . . وآراء هذه النخبة الممتازة من المفكرين المعاصرين لا يرقى اليها أدنى شك في أنها آراء جوهرية عصرية . أو بمعنى أصح خلاصة ذهنية متوقدة سطرها على صفحات القرطاس فلاسفة وحكماء وأدباء بلغوا من مراتب المجد أسماها ، وتبوأوا في

المجتمع الإنسانى مراكز ممتازة . فلم يعتمد واحد منهم إلى المداينة أو التضليل لأنهم جميعاً مثل عليا يحندى بهم طلاب المعرفة فى كل قطر . .

أقول هذه الخريدة من عمل نخبة ممتازة من كتاب الدرجة الأولى لتدل أكبر الدلالة على اهتمام الشعوب العالمى ببرنارد شو . . أو اعتدادهم بآرائه ونظراته فى الحياة . فقد طالج لهم أكثر من نظرية فلسفية ، سيقف القارىء على الكثير منها فى صفحات هذا الكتاب . بل لقد أجبر كثيرين من الفلاسفة المعاصرين أمثال دجود الفيلسوف الانجليزى المعروف ، على دراسة نظرياته ، وتفنيدها تفصيلاً يتفق مع الواقع ، ويتمشى مع نظريات سلفه من الفلاسفة الذين برزوا فى الوجود منذ نشأة الخليقة ، ودونت نظرياتهم خوفاً من ضياعها فى غمار الحياة . . وغير هذا وذلك **ك**ثيرون من الذين أبدوا اهتمامهم بهذا العقل المتوقد النضيج . .

لبرنارد شو آراء طيبة فى ميدان العلوم . وليس لسكونه أدبياً بفطرته ، وكانباً مسرحياً من الطراز الأول ، لا يفقه شيئاً فى الاقتصاد ، أو علم الأحياء أو السياسة مثلاً ، كما يظن السواد الأعظم من الناس ، بل على العكس ، فهو يجيد الناحية العلمية ويحدثك فيها حديث المطلاع الخبير ، الملم بأسرار العلوم ، المتابع تطورها وتقدمها .

ولعل آراءه فى الاقتصاد قد أثارت اهتمام كثيرين من كبار العلماء والاختصاصيين فشهدوا له بالبراعة والحنق وعلو الهمة وطول الباع . .

وفى قاموس السياسة ، سيقف القارىء أيضاً على آرائه فى الرجل الاقتصادى ، وسيلبس بنفسه مدى استعداد هذا الأديب الكبير لفهم نظريات الحياة ، ومعالجته لأدق المسائل التى تحتاج عادة إلى عقل علمى بحت وخبرة واسعة بأساليب هذا النوع من العلوم . .

بقى شىء آخر يعالجه هذا الكتاب ، وهو مجموعة مقالات لبرنارد شو الكاتب الساخر ، عن السجون ، عن الجريمة . أصلها ، والدافع لها ، وطرق مقاومتها ، باللين أو بالقوة . . وهل الجريمة مرض ؟ إلى غير تلك المسائل الفريدة التى تعد بحق جواهر

نادرة المثال في البحث وراء موضوع من أهم الموضوعات التي تشغل بال الرأي العام ، والحكومات في كل بقاع الارض ...

إن كثيرين من علماء النفس قاموا بأبحاث ملأت مجلدات ضخمة عن الدافع الاصلى للجريمة . وقد وفق البعض في الوصول إلى معرفة السبب الجوهرى ، وهو لا يخرج عن كونه سبباً كان له أكثر السيطرة على عقل المجرم ، فأوحى اليه أن يقوم بجريمته انتقاماً لمن اغتصب حقه ، أو أفرط في السخرية به ، أو لشعوره بنقص ما أو حبا في الجريمة ذاتها إلى غير ذلك .

أما برنارد شو فيعالج الموضوع من ناحية مخالفة هؤلاء الذين اتعبوا أنفسهم وآتعبوا الناس والحكومات معهم ...

إنه يعالجه بطريقة الخاصة . فيغريك بمتابعة قراءة بحثه الشيق بروح ملؤها الإعجاب والدهشة لغرابة أفكاره ، وما يتخللها من فكاهة نادرة تضحك من لم يعرف الضحك في حياته ..

وقد رأيت أن اختتم هذا الكتاب بتعريب مسرحية قصيرة لبرنارد شو حتى يتسنى للقارىء أن يقف بنفسه على قوة أسلوبه ومتانته ، وشدة سخريته بالأوضاع والتقاليد ...

وهذه المسرحية القصيرة التي أطلق عليها برنارد شو اسم ، اللقية الحسناء ، لم يسبق أن ترجمت إلى العربية ، ورغم أن صاحبها كتبها عام ١٩٠٩ فإنها لا تزال محببة إلى جمهور القراء في الغرب . مثلها مثل غيرها من مثات المسرحيات الصغيرة التي كان يكتبها برنارد شو ليساعد بها الممثلين الناشئين من أصدقائه . فسرعان ما يكتسبون الشهرة ويبلغون مراتب المجد بمسرحية من تأليفه ، مثلها على مسارح لندن أو أمريكا .

وسيقف القارىء أيضاً على آراء برنارد شو في الاستعمار ، وكيف أنه ناهضه ، ولا يزال يحاربه بكل ما أوتي من قوة وبيان وسلطان ..

ولعل في مقدمته التي استهل بها الكتاب الأبيض عن السودان ، ما فيه الكفاية لإقناع القارئ العربي بأن هذا الرجل النزيه لم يعدم ناصية الحق ، بل هو دائب البحث عنه في كل مكان وزمان .

لقد سخر بالإيجاز ، أو بالآلهة البيض ، الذين يتحكمون في أقدار ذلك القطر الذي هو قطعة من وادي النيل . وأهاب فيهم ، أن عودوا يا قوم إلى بلادكم ، فإعاد متسع في أرض الغير لكم ...

إلى آخر هذه الأقوال السديدة التي ذكرها في المقدمة .

كل هذا مدون في الكتاب .

ولا أخالني إلا قد أوفيته حقه من البحث والاستقصاء .

وحاشاي أن أقول إنني بلغت به آية الدقة أو الكمال ...

لأن الكمال من صفات الله عز وجل ، وليس من صفات الإنسان القاصر الضعيف ، فعذرنا إذن في النقص مقبول .

ولا يفوتني أن أشكر قراء مصر والشرق العربي ، وقراء العراق على وجه أخص ، انهماقهم على مطالعة ودراسة كتابي الأول عن برنارد شو ، فقد أولوني تقهم ، ووصلتني من بعضهم رسائل إعجاب وتقدير ، الشيء الذي اضطرني برأ بوعدي لهم ، أن أستم في دراسة آثار ذلك العالم الجليل ، والفيلسوف الكبير ، لأقدم لهم آخر ما أنتجه يراعه الدفاق ، وقريحته المتوقدة .. فزودتني الايام بدراسة أوفر من الأولى ، غصلت على معلومات جديدة لم يسبقني اليها مؤلف مصري بعد . ولا أنسى أيضاً تشجيع الصحافة المصرية والشرقية والغربية ، وإفساحها لي أكثر من حين لكتابة بعض مقالات عن هذا العالم الرفيع ، أذكر منها جريدتي الاهرام والكتلة الغراوين .

لا شك أن هذا التشجيع نفث في روح الإقدام والمثابرة والبحث والاستمرار في دراسة هذا اللون من شخصيات الأدباء والفلاسفة العالميين الذين لم تكتب عنهم مؤلفات عربية تجمع تاريخ حياتهم ، وتلخص أعمالهم وآثارهم .

فإلى قراء مصر والشرق العربي، وإلى أدباء العراق وقرائه، وإلى الصحافة
المصرية والشرقية والغربية، أتقدم بخالص شكرى وأوفر ثنائى لهذه الثقة البالغة
بالكتاب الناشئين .

والله أسأل، أن يكون نصيب هذا الكتاب كنصيب الكتاب الاول من النجاح
والتوفيق ؟

مبشيل نكسر

القاهرة ١٢ أبريل سنة ١٩٤٨

=====



برنارد شو في الحادية والتسعين من عمره

- ١٩٤٧ -